بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يعد القديس أوغسطين (353 – 430م) على رأس آباء الكنيسة الكاثوليكية الأوائل، وبين أهم المفكرين الكاثوليك الذين أسهموا في صنع العصور الوسطى، أو عصور الظلام في أوربا الغربية، العصور التي استبدت بها الكنيسة الكاثوليكية بجميع مناحي الحياة الدينية والاجتماعية والفكرية والتعليمية، وحاولت أيضاً بسط سيطرتها السياسية على أوربا كلها، لا بل على العالم أجمع بزعامة البابوية، ولهذا دخل البابوات في نزاعات دموية مريرة مع الحكام الزمنيين وعلى رأسهم الأباطرة الغربيين، واستخدم البابوات جميع الأسلحة من دينية وسياسية وعسكرية واقتصادية في الصراعات، ولم يتورعوا عن اللجوء إلى وسيلة من الوسائل مهما كان لونها ومهما كانت قسوتها ووحشيتها وبعدٍ عما بشر به السيد المسيح.

وتاريخ البابوات مهم جداً، يحتاج إلى أكثر من كتاب منفرد، وقد أُقْدم على التأليف في هذا الميدان الخطير إن شاء الله وأعان، ولعله يكفيني الآن العودة إلى القديس أوغسطين، لأذكر أنه كتب عدة كتب من أهمها كتاب حمل اسم «مدينة الرب» أراد أن يقول فيه بعد عرض طويل بأن روما حاضرة الإمبراطور الشيطان كانت قبل أن تسقط هي وإمبراطوريتها، كانت مدينة الشيطان، يحكمها الإمبراطور الشيطان، لكن بعدما سقطت وصارت مسيحية باتت مدينة الرب، يحكمها البابا نائب الرب على الأرض، فهل كان هذا ما حدث، وهل كان البابوات ممثلين للرب في حكمهم وإدارتهم وتصرفاتهم، أم أنهم كانوا أسوأ من الشيطان نفسه، وأكثر شراً ودموية ووحشية؟

وندع الإجابة على هذا السؤال إلى المدونات التاريخية الصحيحة، وهي كثيرة جداً، كتب جلُّها في العصور الوسطى، إن لم نقل كلها من قبل رجال لاهوت، كانوا من أتباع الكنيسة

الكاثوليكية ودانوا بالطاعة للبابا، ويكفي أن أشير هنا إلى كتابَيْ ورود التاريخ، والتاريخ الكبير لمتى باريس، وقد ترجمتهما وطبعتهما في كتابي الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

ونظراً لأهمية المنصب البابوي تنافس عليه الكثيرون، وتمكن أكثر من أربعين رجلاً من الحصول على هذا المنصب عن طريق الشراء، وفي الكتاب الذي أقدم له حكاية أسرة يهودية تجارية، كانت من أبرز أسر روما، استطاعت أن تستحوذ على العرش البابوي لوقت طويل بعدما تظاهرت بالتحول إلى المسيحية، لأن اليهودي عندما يتعمّد، أو يعلن عن دخوله بديانة أخرى، يقوم بتجديد إيمانه بيهوديته، وكنت منذ وقت قريب نشرت كتاباً عن يهود قاموا بإسهامات كبيرة في تاريخ بعض الدول الإسلامية، خاصة الفاطمية والايلخانية، وأتقدم اليوم بهذا الكتاب مبيناً أن اليهودي هو الأقدر على التكيف وإبطان ما لا يظهره، وأننا عندما نقرأ أخبار السيرة النبوية، كانت المواجهة في المرحلة المكية بين المسلمين والمشركين، من دون فئة وسطى بينهما، لكن جاء إلى الوجود في المرحلة المدنية فئة وسيطة، هي فئة المنافقين، وعانى الإسلام طويلاً من النفاق ومازال يعاني.

وفي الكتاب الذي أقدم له الكثير من المعلومات الثمينة، وهو من تأليف رجل كان حاخاماً لمدينة نيويورك، ومع المعلومات التي أودعها في كتابه سوف أذكر بعض المعلومات الإضافية الكثيرة الأهمية زيادة للتوضيح، وتأكيداً لما قاله الله في كتابه العزيز: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ [سورة المائدة: 82]، وقوله جل من قائل: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: 120] وكذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: 51].

وقبل تقديم بعض المعلومات، قد يقول قائل في هذه الأيام: ولماذا البحث في تاريخ الأديان والعقائد، إن ذلك قد يثير التوتر والحساسية، والجواب على هذا: لماذا البحث في التاريخ، وهل يمكن الاستغناء عنه؟ ثم الجواب بداية: لا يمكن، إذ لا يوجد في التاريخ مناطق محظورة وأخرى مفتوحة، ولا فارق أن يبحث الإنسان التاريخ السياسي والتاريخ الديني، لا بل لم يوجد في التاريخ حدث سياسي محض، من دون جوانب دينية عميقة، ومحرضات عقائدية عميقة، ففي نشيد رولاندو أوصى شارلمان جنوده: لا تقبلوا من المسلمين إلا السيف أو العماد، وفي عام 1095م أعلن البابا أوربان الثاني الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين،

وفي أيامنا هذه استخدم الرئيس بوش لدى حديثه عن غزو العراق كلمة صليبية عدة مرات، والذين أنجحوه في انتخابات الرئاسة هم أتباع الكنيسة التي ينتمي إليها، وهي كنيسة المتطهرين الجدد، أو الذين ولدوا بالعماد من جديد، وقد قيل بأن عددهم يقدر بسبعين مليون إنسان، وسمعت مؤخراً من إذاعة لندن وهي تنقل عن مراسلها في واشنطن وهو يصف مرشحة الرئيس بوش لوزارة الخارجية بأنها مثله متحمسة تؤمن بالتبشير بالمسيحية.

علاوة على هذا كثرت في أيامنا الكثير من الأبحاث حول صراع الحضارات، أو بالحري الصراع بين الإسلام والتراث الغربي الممثل للحضارة الكلاسيكية اليهودية المسيحية، ولهذا كثرت في هذه الأيام الكتب والمقالات في تاريخ الديانات، بالدرجة الأولى حول المسيحية، ثم الأدنى حول اليهودية علماً بأن الدراسات ضد المسيحية هي بالمقام الأول لصالح اليهودية، ولهذا توصف الآن أعداد كبيرة جداً من مسيحيي الغرب، خاصة في الولايات المتحدة بأنها «يهودية - مسيحية»، ونظراً لتماسك العقيدة الإسلامية وقوتها ووثائقية القرآن الكريم، ولإتّسام التاريخ الإسلامي بشكل عام بالأخلاق والإنسانية، أراد الغرب الآن اتهام الإسلام بالإرهاب، ومهاجمة النبي صلى الله عليه وسلم واتهامه بالشبق، ناسين أن الغرب هو الذي شن الحروب الصليبية، وأن الذين هاجروا من الغرب إلى أمريكا الشمالية، كان عدد الهنود الحمر الذين قتلوهم حتى عام 1900، لا يقل عن مائة وسبعة عشر مليوناً، وما من أحد ينسى الأعداد الهائلة من البشر الذين قتلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية، ثم إن السجل التاريخي للولايات المتحدة الأمريكية هو الأكثر دموية ووحشية، من هيروشيما، إلى كوريا الشمالية، إلى فيتنام، ثم أفغانستان فالعراق، نضيف إلى هذا أن الكيان الصهيوني قتل وشرد، ومازال يقتل ويشرد الآلاف من العرب الفلسطينيين بالسلاح الأمريكي والنفقات الأمريكية.

يتوجب على المؤرخ المنصف أن يذكر الأمور بأسمائها بكل وضوح ومن دون مواربة وهكذا عليه تبيان نأي الإسلام عن الإرهاب، وتحريمه لسفك الدماء، وتكفي هنا الإحالة إلى خطبة الوداع، وإلى ما نشر حديثاً حول تاريخ الحركات المعاصرة التي سموها إسلامية ثم إرهابية، حيث سنجد أن المؤسس لها والراعي وكالة المخابرات الأمريكية المركزية، أما ما يتعلق بالجنس والشبق، فقد جاء بالأمثال: رمتني بدائها وانسلت، وبالفعل الانهيار

الأخلاقي والانحرافات وقانونية اللواطة والزواج بين الرجال، والإباحة الجنسية ليست موجودة بين العرب ولا بين المسلمين، والكل - عن طريق الفضائيات ووسائل الإعلام الأخرى - يعرف أين هي، ومن أين انتشر مرض الإيدز وغيره، والذين يتهمونه صلى الله عليه وسلم عليهم أن يتذكروا أنه اكتفى بزوجة واحدة من سن الخامسة والعشرين حتى ما بعد الخمسين، وكانت هذه الزوجة أسن منه بخمس عشرة سنة وأنه قبل البعثة كان يمضي الأيام الطوال، شهراً أو أربعين يوماً، متحنثاً لوحده في غار حراء، وما زيجات المرحلة المدنية إلا كانت لأسباب اجتماعية وسياسية محضة.

وعقد مقارنة بين قيام الإسلام، وانتشاره القائم على مبدأ لا إكراه في الدين، وبين انتشار الكاثوليكية في أوربا، نجد أن الإسلام حرص كل الحرص على العلم والمعرفة، وفتح جميع الآفاق أمام ذلك، فكانت المحصلة قيام الحضارة العربية الإسلامية الإنسانية العظيمة، وبالمقابل كان للكنيسة الكاثوليكية أثرها المدمر على الثقافة الكلاسيكية، فبعد تسلمها القيادة توقفت جميع النشاطات في ميادين الطب والتقنيات، والعلوم، والتعليم، والتاريخ والفن، والتجارة، والفلسفة والشعر والآداب والنحو، وهكذا دخلت أوروبا الغربية عصور الظلام، جمعت خلالها الكنيسة ثروات هائلة، لكن بالمقابل اختفى كل ما يتعلق بالحضارة.

واختلف الحال كثيراً في أوربا الشرقية والأقاليم المسيحية الأخرى، وعندما عانت البلدان الأوربية الغربية من كثير من الأوبئة والطواعين، لم يكن هناك لا دواء ولا أطباء، إلا رجال اللاهوت، الذين لجأوا إلى بتر الأعضاء المصابة بكل وحشية قاتلة، أو اعتمدوا وسائل الفصد، لذلك حصدت الأمراض أعداداً هائلة من السكان وساعد على انتشار الأوبئة تشجيع الكنيسة على عدم الاغتسال وإلغاء المراحيض والحمامات.

وأحرقت الكنيسة بتوجيه من البابوات كميات هائلة من الكتب، فالمسيحيون هم الذين أحرقوا مكتبة الإسكندرية، وظلوا يحرقون من دون توقف، حتى أنه جرى إحراق عدة ملايين من المخطوطات العربية في غرناطة بعد سقوطها.

وحين شهدت أوربا الغربية في القرن الحادي عشر ميلادي بداية تحركات اجتماعية واقتصادية جديدة، ولأن البابوية عجزت عن مسايرة التطورات، ولأنها لم تكن راضية عنها، لهذا ولأسباب أخرى أعلن البابا أوربان الثاني عام 1095م عن قيام الحروب الصليبية.

وشغل أوربا والأوروبيين لأكثر من قرنين في استنزاف طاقاتها البشرية والاقتصادية في سبيل قتل العرب والمسلمين، وعندما أخفقت الحروب الصليبية إخفاقاً كبيراً، تحالفت البابوية مع المغول، ثم بعد إخفاقها مع المغول، بفضل الوحدة ما بين سورية ومصر كلفت مارينو سانوتو بوضع خطة لعزل مصر عن الشام وعن العرب والمسلمين، وفعلاً وضع كتاب الأسرار، وليس مدهشاً إذا قلت أن مشروع سانوتو قد جرى تنفيذه في كامب ديفيد، وكنت قد ترجمت هذا الكتاب وطبعته في الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية.

ومع القرن الرابع عشر للميلاد، أي بعد انتهاء الاحتلال الصليبي لعكا وما تبقى من بلاد الشام، ازدهرت في أوربا الروح القومية في وجه النزعة الإمبراطورية والمسكونية التي مثلتها البابوية، وأخذت أوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية تتبدل وظهرت الطبقة البرجوازية، وازدادت أهمية المدن الكبرى، وانبعث من جديد ـ بفضل التأثير العربي ـ الأفكار الفلسفية، وتشكلت بعض الجامعات، وكانت ردات فعل البابوية تجاه هذا كله عنيفة جداً، حيث قضت أوامرها في عام 1210م وعام 1215م بمنع تعليم الفلسفة وتحريمها، والإصرار فقط على تعليم اللاهوت الذي أرادوه، وبالوقت نفسه كانت هناك حملة شديدة ضد الشعر والشعراء، وقرن الشعراء بالسحرة، لذلك استحقوا اللعنة والحرمان الكنسي.

وتعاظمت ثروات الكنيسة الكاثوليكية ومع ذلك ازداد نهمها، ولم تعد تعترف بالوصايا العشرة، بل أحلت محلها وصية واحدة جديدة هي «اجمع المال وأجلبه إلى هاهنا» ولذلك حرمت الكنيسة الزواج حتى لا تنتقل الأموال بالوراثة، ومع ذلك كان لكل أسقف أو سواه أكثر من خليلة مع أولاد غير شرعيين، وأمام هذا الحال أبدى كثير من الناس أراء جديدة قالت بعدم الحاجة إلى الكنيسة وأن الإنسان يمكنه تعبد ربه من دون بابا ورجال لاهوت.

وللسيطرة على تيارات التمرد هذه عمدت البابوية إلى تطوير قوانين خاصة بالكنيسة الكاثوليكية، وأبدعت محاكم التفتيش، وجاء ذلك عوضاً عن محاولات الإصلاح والاستجابة للمطالب الشعبية، وادعت الكنيسة الآن أن لها الحق القضائي على جميع المسائل الإنسانية، وأنه لا يجوز محاكمة رجال اللاهوت إلا من قبل البابوية نفسها أو من قبل من تفوضه، وسوغ البابوات هذا الادعاء بأنهم خلفاء القديس بطرس، وأن بطرس الرسول هذا كان أمير الحواريين، أعلمه السيد المسيح بأن ما يعقده على الأرض معقود في السماء، وأن ما

يحله على الأرض محلول في السماء، لذلك صار البابا يمنح الغفرانات من مختلف الذنوب، أي مما تقدم منها ومما تأخر، ومع الغفرانات بات قادراً على طرد أي شخص مهما كانت مرتبته من الكنيسة والمسيحية، وتكفيره وحرمانه كنسياً، وفي علاقات البابوية مع الإمبراطور فردريك الثاني أمثلة موضحة، وبينات موثقة، وأقدم أيضاً أكثر من بابا على حرمان مدن وأقاليم بأسرها كنسياً، وكان من بين المدن التي حرمت كنسياً مدينة القدس بعد تحريرها من الصليبيين.

ولم يكتف البابوات بإعلان الحروب الصليبية ضد المسلمين بل أعلنوها ضد المسيحيين الأرثوذكس، وغيرهم، وهكذا قامت الحملة الصليبية الرابعة في مطلع القرن الثالث عشر بالاستيلاء على القسطنطينية ونهبها وإحراقها، وعندما اشتكى الإمبراطور الإغريقي إلى البابوية بسبب ما حدث، رد عليه البابا قائلاً: «نحن نعتقد بأن الإغريق قد عوقبوا من خلال (الصليبيين) بموجب حكم عادل صادر عن الرب، لأن هؤلاء الإغريق ناضلوا جاهدين في سبيل تمزيق رداء يسوع المسيح الذي لا نظير له. . . . إنهم الذين رفضوا الالتحاق بنوح في سفينته، فهلكوا باليم بشكل عادل، وهؤلاء هم الذين تألموا بشكل عادل من المجاعة، وعانوا من الجوع، لأنهم رفضوا استقبال بطرس المبارك، أمير الحواريين ليكون راعياً لهم».

ومعروف أن العرب بعدما فتحوا الأندلس فتحوا جنوب فرنسا، وكان لهم ولإسلامهم تأثير بالغ على السكان، ولا سيما على إقليم لاندوك Langedoc، حيث تطور في هذا الإقليم عقيدة عرفت باسم الكاثارية Cathars، ومع أن القديس برنارد الباريسي أثنى على أخلاق وسلوك الكاثارايين، أعلنت البابوية حرباً صليبية ضدهم، مثل الحرب ضد مسلمي الأندلس، ومنذ عام 1139، أخذت البابوية تجرد الجيوش ضد الكاثاريين، وفي مطلع القرن الثالث عشر عندما كانت جحافل الصليبيين تنهب القسطنطينية، كانت جحافل أخرى تعمل على إبادة الكاثاريين، حيث قتلت ما يقارب المليون منهم ومن سواهم، ودمرت بلادهم تدميراً كاملاً، وكان الكاثاريون يتمتعون بشعبية كبيرة بين جيرانهم الكاثوليك، ولذلك وقف بعض الكاثوليك إلى جانبهم وكان في هذا بعض الإحراج إلى جنود الصليبيين، ولذلك سألوا قائدهم النائب البابوي أرنود Arnaud: كيف يمكننا تمييز الكاثوليكي عن الكاثاري؟ فأجابهم: «اقتلوهم جميعاً، لأن الرب يعرف جماعته»، وفي الإطار الزمني الذي تعرض فيه الكاثاريون وسواهم إلى

الإبادة، كان هناك نائب بابوي آخر يقود الحملة الصليبية الخامسة، التي قتلت في دمياط وحدها ما لا يقل عن سبعين ألف مسلم.

إن التاريخ الدموي للبابوية طويل جداً، امتد ما يزيد على ستة عشر قرناً من الزمان، ووصل ذروة وحشيته وإجرامه في محاكم التفتيش التي استهدفت بالأصل منع الإنسان من التفكير حول الله والخلق، ولذلك أعلن البابا أنوسنت الثالث: «إن أي إنسان سوف يحاول بناء رأي شخصي عن الرب، يتعارض مع عقيدة الكنيسة ينبغي حرقه من دون شفقة»، وتصرفت محاكم التفتيش وفق قاعدة قضائية هي «المتهم مدان حتى يثبت براءته»، وعبر قرون عجز أي متهم عن إثبات براءته فكان نصيبه الحرق، وبناء عليه أعلن الراهب برنارد ديليسي Delicieux «لو أن القديس بطرس، والقديس بولص اتهما بعبادة هرطقية، وجرى تعذيبهما وقمعهما وفقاً لمذهب محكمة التفتيش وطريقتها سوف لن يكون مفتوحاً أمامهما سبيل للدفاع».

ولقد مارس قضاة محاكم التفتيش الإشراف شخصياً على التعذيب ثم محاكمة المتهمين، واخترعوا وسائل للتعذيب لا تخطر حتى على بال الشيطان نفسه، منها: كان أحدهم يأتي بوعاء مليء بالفئران، ثم يكبه على المعدة العارية لمتهم، ثم يأتي بالنار فيضعها على ظهر الوعاء، فتتحرك الفئران، وتمضي إلى داخل جسد المتهم، وكانوا أيضاً يجردون المتهم ـ أو المتهمة ـ من الثياب، ويدلكون جسده ـ أو جسدها ـ بشرائح من شحم الخنزير، ثم يأخذون بشيِّه على نار بطيئة، واستولى قضاة محاكم التفتيش على أموال المتهمين وممتلكاتهم وكثيراً ما حاكموا أناساً مضى على موتهم سبعين عاماً، حيث نبشوا قبورهم، وأخرجوا عظامهم وحاكموها ثم أحرقوها، وقام البابوات بتحليل قضاة محاكم التفتيش من جميع الآثام والجرائم التي اقترفوها، ومنحهم سلطة تحليل أعوانهم ومساعديهم.

لقد بثت محاكم التفتيش الرعب في قلوب الأوربيين جميعاً، وعانى منها المسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة حتى القرن التاسع عشر، بشكل لم يعرف التاريخ له نظيراً، وانتقلت محاكم التفتيش إلى العالم الجديد، وسارت في ركاب بعثات التبشير، فكان لها آثارها المدمرة حتى في الصين واليابان، أما في العالم الجديد، فقد أبادت العديد من سكان بيرو وسواهم، وأعلنت البابوية أنه يحق للغربيين قتل سكان العالم الجديد واسترقاقهم:

«تماماً كما فعل يوشع باستبعاد سكان بلاد كنعان» وقتلهم، وأدى هذا إلى شبه إبادة كاملة للهنود الحمر، وتستخدم الصهيونية الآن هذه القاعدة تجاه الفلسطينيين أبناء الكنعانيين القدماء.

ومن جديد أعاود التأكيد أن السجل البابوي طافح بالجرائم ضد الإنسانية، ولا يمكن مقارنة هذا السجل - لطوله وديمومته - بسجل جنكيز خان، وهولاكو، وتيمورلنك، وأن الكشف عنه علمياً ووثائقياً بات ضرورياً، ولا سيما في وجه الحملة اللاأخلاقية ضد الإسلام عقيدة وتاريخاً وحضارة، والكشف التاريخي لا يتضمن - بحكم حيادية البحث التاريخي - أية إثارة للضغائن أو دعوة للانتقام - لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى - بل التأكيد أن طريق الخلاص متوفر فقط في الإسلام، الذي لم يعرف الكهنوت ولم يعترف بالطبقية اللاهوتية، وأقر الوحدانية النقية، ونفى الشرك، وحصر الإدانة والغفران بيد الله وحده، حيث لا سلطة لإنسان على إنسان، وحيث السبل كلها مفتوحة أمام العبد للوصول إلى عبادة الله ورضاه جل وعلا.

ومن الضرورة بمكان أن يتسلح الدعاة من المسلمين بالمعرفة التاريخية للإسلام ولغير الإسلام، وكذلك المعرفة الدينية العقائدية، وأن يبتعدوا كل البعد عن سفك الدماء أو التفكير بذلك، لأن واجبهم الهداية، ولا يمكن للهداية أن تأتي عن طريق القتل والانتقام والاغتصاب، بل عن طريق المحبة والإخوة الإنسانية.

أرجو الله تعالى أن يفيد هذا الكتاب، مع كتب أمثاله سوف تأتي - إن شاء الله وأعان - بأن علينا التعلم من دروس الماضي، لصنع حاضر إنساني أفضل، ومستقبل تدار به البشرية بشريعة الله الموجودة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة، فقد كفانا استبداد الإنسان بالإنسان، باسم التفويض من بطرس الرسول، أو من واحد من الأقانيم الثلاثة.

والحمد لله أولاً وآخراً، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، المصطفى عبد الله ورسوله الأمين، الذي جاء بالنظرية من عند الله، وتولى التطبيق تحت رعاية الله وإشرافه، لأنه كان لا ينطق عن الهوى، فكان فرداً، مثلما الدين عند الله الإسلام.

دمشق 21 / ذي القعدة

1/ 1/ 2005م

سهيل زكار

تمهيد

بدأت بالتفكير بكتابة هذا الكتاب، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، خلال حقبة مأساوية من الزمن، إذ حالما استلم هتلر السلطة، في ألمانيا بدأ اليهود، الذين ظلوا متمسكين بديانتهم لعدة قرون، يتعرضون للضغط والاضطهاد، والظلم والتهديد بالموت، مع أنه كان من الصعب على اليهود الحقيقيين أن يفهموا سبب فرز طائفة عاشت في ألمانيا أكثر من ألف وستمائة عام، وتعرضها للاضطهاد بلا رحمة، وكانت القضية أكثر صعوبة وإرباكاً لأولئك الذين اعتنق آباؤهم وأجدادهم الديانة المسيحية، والذين تربوا وترعرعوا في كنف الديانة المسيحية، فإذا هم بين عشية وضحاها يجدون أنفسهم وقد أصبحوا يتقاسمون القدر نفسه مع اليهود الحقيقيين، الذين لم يتحولوا إلى المسيحية، وذلك لأن هتلر لم يعترف بتحول أي يهودي إلى الديانة المسيحية، إذ أن انتماء أي طفل لجدة يهودية، سواء تحولت أم لم تتحول، كان كافياً في نظره، لإفساد دم الطفل، وجعله ـ ما دام أن الدماء الآرية لا تجري في عروقه ـ غير قادر، أو مؤهل لخدمة الدولة ولا لممارسة أية مهنة، ولا حتى الحق في الحياة الكريمة.

وبطريقة ما أصبح هؤلاء غير الآريين، الذين لا هم مسيحيون، ولا هم يهود، يحسدون أولئك اليهود الذين ظلوا متمسكين بيهوديتهم، وتحملوا الحمل الجديد، بإباء مدركين أن العذاب قدر هذه العشيرة منذ الأزل، وعندها بدأ اليهودي المتحول إلى المسيحية يفكر بعبث وعدم جدوى هذا التحول فقد حاول أن ينجو بالهرب من نفسه، والتنكر ليهوديته، وتغيير اسمه اليهودي، وخان ديانته، وتبادل العلاقات الزوجية مع المسيحيين، كل ذلك دون جدوى، لقد وجد نفسه الآن في فخ هائل فالحرف (ي) المختوم على جواز سفره، يدل بوضوح أنه يهودي، ولسوف يبقى يهودياً، ولو ذهب إلى أقاصي المعمورة، لهذا بدأ اليهودي يسأل نفسه: «ألا يستطيع أن ينجو من قدره حتى في القرن العشرين؟» وخطر ببالي، أن أذهب وأتكلم مع كثيرين من أولئك الناس المشوشي الأفكار، حالما تقاطروا وبشكل فجائي للالتحاق بالخدمات الدينية اليهودية،

والاجتماعات، أملاً في إرضاء فضولهم حول أنفسهم بعد أن علموا ألا مناص ولا أمل بالخروج من الوضع الراهن، فقد عاد وجودهم، واقترن بأولئك الذين كانوا يصرحون بأصلهم اليهودي بكل بساطة.

بدأت في ذلك الوقت أفكر بمشكلة تورط اليهود، وقد تأثرت بما جرى لهرتش هاين (Heirich Heine) وهو شاعر ألماني يهودي اعتنق المسيحية في شبابه، لكنه عاش في أواخر حياته حالة ضبابية بين اليهودية والمسيحية، ولم يرتبط بأي منهما بشكل قاطع، وقد استمر في الكتابة بشكل مراوغ، والانتقاص أحياناً من شأن اليهود والديانة اليهودية، وبهذا لم يعد يستطيع الرجوع إلى اليهودية، ولكن بالوقت نفسه لم يكن قادراً على الخروج من جلده، وأخيراً وهو على فراش الموت بعد أن أصيب بالشلل، وهجره أصدقاؤه وأصبحت حالته تعيسة مزرية، طلب أن يحضر أحد المرتلين الدينيين اليهود إلى جانب فراشه، وأن يرتل له تراتيل شعبي الصحراوية، وبعد موته عمد أحد نحاتي التماثيل إلى صنع قناع يمثل وجه ذلك الرجل العظيم المأساوي، ولقد رأيت ذلك الوجه أيام حكم هتلر، فبدا لي وجه رجل يهودي، عجوز، مريض، ملتح، فهذا الرجل الذي رفض أن يرجع إلى بني جلدته، وهو على قيد الحياة، هاهو الآن قد عاد إليهم بعد مماته، ذكرت قصة هاين لأولئك المتشككين بأنفسهم، فليس هنالك من جدوى للهرب، فهم سيظلون يهود على الرغم من أنفسهم وعلى الرغم من معتقداتهم، وحتى على الرغم من دينهم.

عثرت في تلك الآونة على كتاب صغير بقلم جيرتورد فون لي فورت، (Gertrud Von Le Fort) وهي كاتبة ألمانية، تحولت من البروتستانتية إلى الكاثوليكية وهذا الكتاب خيالي يعتمد على وثائق تاريخية مكتوبة بأسلوب سرد التاريخ في العصور الوسطى، وهو يعالج مشكلة عائلة يهودية تحولت إلى الديانة المسيحية، وأصبح أحد أفرادها البابا أناكلت الثاني Anaclet. II واسم هذه العائلة هو بيرليوني Pierleoni، وهو اسم عثرت عليه من قبل، وقد ورد ذكره في دراسة سريعة خاطفة لتاريخ اليهود في روما، والحقيقة أن قصة شخص يهودي أصبح (بابا) في روما، قد استهوتني خصوصاً وإنها تمدنا بتثبيت تاريخي للخرافة القديمة التي انتشرت في العصور الوسطى عن وجود (بابا)

يهودي، وهناك مشهد في الكتاب لن أنساه أبداً، ذلك أنه يدعم نظريتي حول عدم قدرة اليهود على الإفلات والنجاة، وفي هذا المشهد بطرس ليونس (Petrus Leonis) وهو عميد عائلة بيرليوني، وهو مضطجع على فراش الموت في القاعة الكبيرة في قلعته الرومانية، وقد جلس أبناؤه صامتين حول فراشه، ولكن أحدهم وهو بطرس (بيتر)، لم يكن قد عاد من باريس، حيث كان يقوم بوظيفة كاردينال، وكان من الواضح أن هذا الرجل يناضل الموت حتى تكتحل عيناه برؤية أحب أبنائه إليه، وأخيراً وصل الكاردينال، وهو يرتدي الشعارات الفخمة الدالة على وظيفته ومقامه الرفيع، فالصليب الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة، والجواهر، يتدلى من سلسلة ذهبية، وعلى رأسه تاج الأسقف المهيب، وأسرع الكاردينال إلى حيث كان والده، ونظر الرجل المحتضر بفخر واعتزاز إلى ابنه الذي حقق أحلامه، وقال له: «اركع يا بني لأني أريد أن أباركك!».

وحالما ركع الكاردينال أمام والده، رفع العجوز يده المرتجفة ومسح على رأس ابنه فسقط التاج على الفراش، ثم إلى أرض القاعة الفسيفسائية، حيث استقر كعلبة فارغة، ثم بدأ الأب بطرس ليونس يلفظ كلماته بقوة استمدها من الضعف، ويقول: «أباركك يا ولدي بركات آبائنا الأولين، إبراهيم واسحق، ويعقوب!».

وبعد أن تفوه بهذه الكلمات، أسلم الروح، وهكذا وفي ساعة موته لفظ الأب بركات أجداده، ووهبها لولده: ذلك الولد الذي هو أحد رجالات الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

بالطبع إن هذا المشهد هو من نسيج خيال أحد الروائيين، أما بالنسبة إليّ فإن فحواه أصدق من التاريخ، وأكبر قيمة من أية وثيقة، فهذا الكاتب الكاثوليكي قد فهم مشكلة التورط عند اليهود، التي استطعت أن أجدها حول عائلة بيرليوني هذه، وسرعان ما اكتشفت أن عدة مؤرخين أقدر مني قد تصدوا لهذه المشكلة، هذا وقد حصلت حولها اكتشافات مذهلة على يد باحثين اختصاصيين من: إيطاليا، وإنكلترا، وأمريكا، وكل هذه الاكتشافات موثوقة وموثقة أيضاً، ومنها اتضح لي أنه لم يخرج البابا (أناكلت) الثاني من أسرة بيرليوني لوحده فحسب، بل إن اثنين من الغريغوريين، وهما: البابا غريغوري السادس، والبابا غريغوري السابع، ذلك العملاق في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى، والمدافع عن الكنيسة، والمطالب باستقلالها، ذلك الرجل الذي عرف

عنه أنه أهم وأقدر بابا في التاريخ، والذي يعد قديساً من قديسي الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ما هو إلا أحد أفراد أسرة يهودية تحولت إلى المسيحية في روما وهي أسرة (بيرليوني) تلك، ولاشك أن مجادلات حامية قد نجمت عن هذا الاكتشاف، وخصوصاً بين مؤرخي العصور الوسطى الألمان، ولكن أخيراً تبقى الحقيقة الراهنة وهي أنه سواء أكانت قرابته لهذه الأسرة بالدم أم بالزواج والمصاهرة، فإن غريغوري العظيم كما تصفه تواريخ بيجوا Pegua هو (Avun culuc Pierleoni) وهي عبارة ترجمتها: إما عم أو ابن الأخ لأسرة بيرليوني.

وشعرت أن قصة هذه الأسرة الكبيرة الغريبة يجب ألا يسمح لها أن تظل مدفونة في زوايا النسيان، دون أن يطلع عليها معظم القراء، لهذا قررت تدوينها هنا، بأحسن ما عندي من حديث وأسلوب، ولسوف يظهر منها بوضوح التورط اليهودي، حيث إنه بعد أن اعتنقت عائلة بيرليوني المسيحية بحوالي مئة عام هوجم أناكلت، وهو آخر بابا من عائلة بيرليوني بوصفه ذلك اليهودي المتربع على عرش بطرس.

أسطورة البابا اليهودي كما رواها ميشا بن غوريون

لقد انتشرت القصة القديمة عن وجود بابا يهودي بشكل واسع في أوروبا خلال العصور الوسطى، ووصلت إلينا في أربع روايات على الأقل، وتقول إحدى هذه الروايات: إن البابا عندما رجع إلى وطنه وإلى جماعته وشعبه عمد إلى الانتحار، وذلك بقذف نفسه في وسط النيران المستعرة، وفي الرواية الإسبانية يدعى البابا (أندرياس)، ولاشك أن هذا يشير إلى البابا (أناكلت) الثاني Anaclet II والرواية التي أقدمها في هذا الكتاب مأخوذة من كتاب Der Bornjudas ـ أي بئر يهودا ـ تأليف ميشا بن غوريون:

فيما مضى من الأزمان، وفي مدينة ماينس Mayence الواقعة على نهر الراين، عاش معلم تقي شهير اسمه الرباني شمعون، وكان في بيته ثلاث مرايا، وباستطاعة كل شخص أن يرى في هذه المرايا كل ما حدث في العالم الماضي، وما سيحدث في المستقبل، وعندما مات الرباني شمعون انبثق بئر من قبره، وعدّ هذا البئر معجزة كبرى، وذلك لأن ماء ذلك البئر احتوى قوى شافية من الأمراض.

وكان للرباني شمعون ولد يدعى (ايلشانا)، وعندما كان هذا الولد طفلاً صغيراً، ذهب أبوه وأمه إلى بيت العبادة، وتركاه تحت رعاية فتاة شابة (وصيفة)، وكان من عادة إحدى السيدات من الجيران، أن تأتي لتحضير المدفأة وإشعال النار لهذه العائلة، وعندما حضرت هذه السيدة في هذه المرة، أخذت الطفل من مهده، ووضعته بين ذراعيها، ثم تركت المكان، ولم تُعر الفتاة أي اهتمام لما حدث، فقد فكرت أن السيدة قد خرجت بالطفل لتلاعبه، وأنها سرعان ما ستعود به، ومع ذلك لم تعد هذه السيدة بل أخذت الطفل إلى مكان بعيد، وسلمته إلى الكهنة، وعندما عاد الرباني شمعون وزوجته لم يجدا، لا الطفل، ولا الفتاة الشابة، لأنها كانت قد خرجت من البيت للتفتيش عن السيدة والطفل، وعندما لم تجدهما، عادت إلى البيت وهي تبكي، وأخبرت الوالدين بما حدث، عندها أجهش الوالدان بالبكاء، والنحيب بشكل يقطع الأكباد، ثم أعلن الرباني شمعون الصيام، وبدأ يعاني بجسده ليلاً ونهاراً، والصلاة إلى الرب، والتوسل إليه لإرجاع طفله له، ولكن صلواته وتوسلاته لم تستجب، ورفض الرب أن يكشف اسم المكان الذي كان الطفل به.

وفي أثناء ذلك كبر الطفل (ايلشانا) ونما وترعرع بين الكهنة، وبدأت الحكمة والمعرفة تتسربان إلى نفسه، فقد ورث عن والده عقلاً نيراً متفتحاً، وهكذا انتقل من جامعة إلى جامعة حتى ذاع صيته بين الخاص والعام، وأخيراً ألقت به عصا الترحال في روما، وهناك تعلم لغات أخرى، عدا عن اللغات التي كان يعرفها واكتسب شهرة عظيمة في العلم والمعرفة، وأخيراً ارتقى إلى منصب كاردينال، وذاعت شهرته في جميع أنحاء العالم، فقد كان رجلاً وسيماً، وعالماً علامة.

وحدث أن توفي الحبر الأعظم في روما في ذلك الوقت، ولم يكن هنالك أي شخص يستحق أن يخلفه سوى هذا الكاردينال وهكذا أصبح ابن الرباني شمعون، بابا في روما.

لم يكن هنالك من شك أن البابا الجديد كان يعرف أصله اليهودي ويعرف أيضاً أن أباه هو الرباني العظيم شمعون، الذي عاش في مدينة ماينس الواقعة على نهر الراين، ولكن شهرته ومنصبه الرفيع أجبراه على التريث، وكبت حنينه لشعبه، ورغبته في

الرجوع إلى دينه، إنما بعد أن استلم منصب البابوية، زاد حنينه وشوقه لرؤية والده وجهاً لوجه، وهكذا قرر أن يلجأ إلى الحيلة لجلب والده إلى روما، فأرسل مرسوماً بابوياً إلى أسقف ماينس طلب به أن يخبر جميع اليهود في المدينة، أنه ابتداء من ذلك اليوم لن يسمح للنساء باتباع تقاليد الطهارة التي كان اليهود يحافظون عليها، وهدف البابا الجديد من هذا المرسوم أن يبادر اليهود عند تبلغهم محتواه إلى إرسال وفد من الرجال المهمين للاجتماع به، والطلب منه بوصفه بابا، أن يلغي هذا المرسوم ولم يكن لديه من شك أن هذا الوفد سوف يكون برئاسة والده، وهذا فعلاً هو ما حدث، فقد حل الفزع باليهود عندما قرأ لهم الأسقف المرسوم البابوي، فتوسلوا إليه أن يجنبهم هذا الشر، لكنه أخبرهم أن لا حول له ولا قوة، ونصحهم أن يذهبوا ويقابلوا البابا، وبدأ اليهود بعمل الكفارات والصيام والصلاة، وبعدها انتخبوا اثنين من العلماء يرافقان الرباني شمعون في مهمته إلى روما.

عندما وصل المبعوثون الثلاثة إلى روما، وذهبوا إلى الحي اليهودي وأخبروا إخوانهم عن الغرض الذي حدا بهم للمجيء إلى روما، وفي أول الأمر لم يصدق يهود روما هذا الخبر، فقد كانوا يعلمون أن البابا صديق لليهود، وعندما أظهر لهم الرباني شمعون المرسوم البابوي، قال يهود روما: «الويل لنا، فالرب قد غضب عليكم» ثم دعوا إلى يوم صيام، وصلوا لأجل إخوانهم في ماينس، وبعد ذلك توجه اليهود إلى واحد من الكرادلة، وكان يرى البابا يومياً، وأخبروه بما أتوا من أجله، فنصحهم الكاردينال أن يقدموا شكواهم كتابة، وبعدها يقدم هو هذه الشكوى إلى البابا، وحالما وصل الكتاب إلى البابا نظر إلى التواقيع، فاكتشف اسم والده الرباني شمعون وأنه كان من بين المبعوثين، وعندها دعاهم للحضور إلى القصر البابوي، وسرعان ما وقف الرباني شمعون وجهاً لوجه أمام الحبر الأعظم للكنيسة الرومانية، فسارع إلى السجود أمامه، ولكن البابا طلب منه أن ينهض ويجلس على كرسي أمامه، وبعدها طلب منه أن يتقدم بطلباته، وكان الرباني شمعون في غاية الانفعال، ولم يستطع أن يفصح عما أراد أن يقوله، بسبب الدموع المنهمرة من عينيه، والعبرات التي كادت تخنق صوته، إلا أنه استطاع أخيراً أن يتكلم بحرية عن المرسوم البابوي الذي كان يهدد طائفته، ولكن البابا لم يستجب بسرعة، بل بدأ

بالحديث مع الرباني الشمعون في قضايا ومفارقات علمية، مما أدهش الرباني شمعون، لثقافة الحبر الأعظم وعلمه، ولما كان البابا يعلم أن الرباني من لاعبي الشطرنج المهرة، دعاه أن يلعب معه، ولشدة عجب الرباني غلبه البابا بشكل لطيف بارع بعد بضع حركات، وعندها وصل البابا إلى درجة لم يستطع بعدها أن يقاوم نفسه، فطلب من الحضور أن يتركوهما لوحدهما وعندها أخبر الرباني شمعون أنه ابنه، وشرح أن هذا المرسوم ما كان إلا حيلة لاستقدامه إلى روما، ثم أعطاه رسالة بابوية ألغى بها مرسومه الماضي، ثم ودعه وسمح له بالعودة إلى ماينس بسلام.

وبعد مضي عدة سنوات، اختفى هذا البابا من روما، ورجع سراً إلى ماينس.

والحقيقة أنه لم يكتف بالعودة إلى مسقط رأسه فحسب بل رجع إلى رب آبائه الأولين، ويقال أنه كتب قبل مغادرته روما، كتاباً فند به حقائق الديانة المسيحية، وترك هذا الكتاب في الحجرات البابوية، حتى يستطيع خلفاؤه أن يقرأوه، وهنالك مزمور ينشد في اليوم الثاني لعيد السنة اليهودية الجديدة، وقد كتب هذا المزمور الرباني شمعون يصف به قصة البابا اليهودي، وهي قصة حقيقية لا ينبغي لأحد أن يشك بصحة وقوعها.